بقية السحر والمثنوية

للأستاذ عباس محمود العقاد

في كتاب حديث باللغة الانجليزية عن الآثار الدينية بمصر ذكر المؤلف معاني المعابد القديمة وطواف المسلمين بها في المواسم وفي غير المواسم يلتمسون قضاء الحاجات أو يطلبون وقاية الأبناء والأعزاء ، ويعلقون على جدرانها خيوطاً أو خلفاناً تتصل بأصحابها كرامة الصنم أو القديس القديم ، وقال المؤلف بعد ذلك ما معناه أن هؤلاء المسلمين ولاشك هم من عنصر الفراعنة الأقدمين ، وأن هذه العقائد هي سلسلة الوراثة من الآباء إلى الأبناء والأحفاد .

ومثل هذا التفسير يجوز لو كانت العقائد مما يورث في الدماء وراثة تشريحية كما يقولون في مصطلحات العلم الحديث ، ولكن العقائد لا تنتقل هذا الانتقال ولا تبقى إلا بآثارها في المجتمع أو بأساسها من النوازع النفسية الخالدة ، وليس منها الايمان بولي مخصوص أو بمكان محدود . بل ذلك هو حكم العرف والتقليد

لقد لاحظنا كثيراً في الصعيد أناساً يذهبون إلى أصنام الفراعنة ولا سيما آلهة النسل — يطلبون الذرية ويفرضون على أنفسهم النذور ، ويتلون بعض التمائم والدعوات . ولاحظنا كثيراً أناساً من المسلمين يطوفون بغير المعابد الاسلامية دفعاً لمرض أو اتقاء لبلاء ، فلم يخطر لنا أنهم يستمدون ذلك بفعل الوراثة والتغلغل في التركيب على غير علم من ذويه ، وإنما خطر لنا أنها بقية من السحر وبقية من الايمان بعناصر الشر تساور الناس من جميع الأديان

فالمسلمون والنصارى واليهود والمجوس والبوذيون يلجأون إلى السحرة للتعوذ من الشرور ، ولا يقول أحد إنهم أبناء أمم قديمة كانت تدين بهذا الدين أو ذاك ، ولكنهم في الواقع يؤمنون بالسحر اليوم كما كانت الأمم القديمة تؤمن به على السواء في أفريقيا وأوربا وآسيا والأمريكتين وكل صقع من أصقاع العالم . ولو بقي في أستراليا مثلا رجل واحد يلجأ إلى ساحر ليحميه بالرقى والتعاويذ لما جاز أن يقال إن هذا الرجل من نسل المصريين الأقدمين لأنهم كانوا أمة يسود فيها طائفة من السحرة والكهان . بل كل ما يجوز أن عقيدة السحر لها مرجع واحد من نوازع النفس الانسانية ، وهو خوف المجهول والايمان بوجود عناصر شريرة تصيب الناس ويتأتى لهم اتقاؤها بالطلاسم والهدايا والقرابين ، على أيدي السحرة من ذوي الصلة بتلك العناصر أو تلك الأرواح

فالمسلم المصري الذي يلجأ إلى صنم فرعوني لا يتوجه إلى ذلك الصنم لأنه يعبده أو يحس في نفسه نوازع الوراثة من قتل الآباء والأجداد ، ولكنه يتوجه إليه كما يتوجه إلى ساحر يخدم الشياطين ويصون الناس عن أذاها بجعل معلوم ، ومن دأبه أن يتوقع الشرور من جانب الشياطين ، فكيف يتفق على مهادنتها ومسالمتها إلا أن يكون الاتفاق على أيدي وسطائها المقبولين وسفرائها المقربين ؟ إن الاتفاق مع شيخ من الشيوخ الصالحين قد يطول أمره ، وقد يكون إشهارا للحرب يستميت فيها الشيطان ثم ينهزم آخر الأمر بعد التنكيل بمن أثاروه وتاوأوه . ولم هذا التطويل وهذه المجازفة ؟ وماذا يجدي المتوسل المسكين أن ينهزم الشيطان في نهاية المعركة على يد الشيخ الصالح ؟ أليس أحكم من ذلك وأدنى إلى النجاح أن تهدئ ثورة الشيطان بالتوسل إلى سفرائه المعروفين ؟

تلك هي الحالة العقلية أو الحالة النفسية التي تحفز بعض المسلمين إلى ابتغاء المعونة من الساحر أو من الصنم الفرعوني المهجور

ونقرب هذه الحالة ببعض التقريب فنسأل : ماذا يصنع الفلاح المصري اليوم إذا علم أن مئسراً من اللصوص هجموا على داره فانتزعوا منه طفله وحيوانه وأنذروه باحراق زرعه ؟

إنه لا يؤمن بحكومة مشروعة لأولئك اللصوص ، ولا يحبهم ، ولا يرضى عن وجودهم ، ويعلم أن الطريق المشروع هو تبليغ الحكومة ، وأن الحكومة إذا دخلت في حرب سجال مع أولئك اللصوص فالغلبة لها لا محالة ، واللصوص مقبوض عليهم في يوم من الأيام بغير جدال

ولكن ما العمل إذا قتل اللصوص طفله وحيوانه وحرقوا زرعه ودارد قبل وصول الحكومة إليهم ونجاحها فى القبض عليهم ؟ أليس الأجدي من ذلك أداء « الحلاوة » المفروضة والتماس السلامة من هـذا الطريق القريب ؟ وهل يقدح ذلك فى طاعته للحكومة وإخلاصـه للقانون وكراهته لنسر اللصوص ؟ ؟

هذا بعينه هو أسلوب المسلم المصرى فى التفكير حين يعن له أن يحمى نفسه وأبنـاءه من أذى الشياطين أو أرباب الكفر القديم .

إنه يؤمن بالله ويعرف أنه هو الاله الوحيد الحقيق بالطاعة والعبادة ، وأنه إذا توسل إلى ولى من أوليائه الصالحين فهو منتصر فى نهاية المعركة لا محالة ، ومطمئن إلى جانب الله مالك الملك وقامع الانس والجن والمردة والشياطين .

ولكن ما العمل إذا قتل الشيطان ابنه أو مسه بطائف من الخبل قبل انهزامه فى المعركة التى يشنها عليه ولى الله ؟ أليس الأجدى من ذلك أداء « الحلاوة » المعلومة وكتابة الحجاب المطلوب وتسليم الأتاوة وكفى الله المؤمنين القتال ؟ ؟

فالسحر هو مهادنة بين المؤمن وعناصر الشر إيثاراً للدعة والايجاز فى علاج الأمور، وليس فيه إيمان بإله قديم ولا تراث من دم موروث فى العروق .

* * *

ويشبه الايمان بالسحر الايمان الخفى بالثنوية فى نفوس الجهلاء وبعض المتعلمين .

لقد كانت مدام دى ستايل تقول إنها ملحدة ولكنها تعتقد وجود الشياطين ، أو إنها فقدت رجاءها فى الخير ولكنها لم تفقد خشيتها مما فى العالم الظاهر والباطن من شرور .

والمسلم اليوم يؤمن بالله ، وأن إبليس رسول الشر فى هذه الدنيا غير مشلول الحركة ولا مشلول السواعد ، فقد يصيب من أراده بالضرر ثم يكون المرجع فى دفع ذلك الضرر إلى الله .

ولم يكن هـذا اعتقاد الأقدمين من جميع الأمم مصريين و[illegible] وفرساً وعرباً وأوربيين وأمريكيين .

بل كان اعتقادهم أن للشر إلهاً مناهضاً لاله الخير يتصاولان ويتصارعان ، ولكل منهما معابده وكهانه وشعائره وصلواته ، ومنهم من كان يصلى ويتقرب لاله الشر دون إله الخير . لأن إله الشر هو المخيف المؤذى الذى لا يكف عن الاساءة إلا بمهادنة وقربان ... أما إله الخير فلا خوف منه ولا انقطاع لخيره ، إذ هو مطبوع عليه انطباع زميله على النكاية والايذاء .

بطلت هذه العقيدة وخلفتها عقيدة التوحيد ، ولكنها ذات رجعات وعقابيل تظهر فى المعتقدين والملحدين . فأما المعتقدون فمثالهم أولئك الجهلاء الذين يتوجهون إلى صنم فرعونى قديم ، وأما الملحدون فمثالهم مدام دى ستايل التى تخاف المفاريت والشياطين ولا تخاف الله . وفيما تقدم كله تفسير لما أشكل فهمه على الأستاذ مورتون مؤلف الكتاب الذى أشرنا إليه .

عباس محمود العقاد

ظهر حديثاً كتاب

سياسة الغد

برنامج سياسى واقتصادى واجتماعى

تأليف

مريت بك بطرس غالى

يطلب بالجملة من إدارة الرسالة ويباع فى جميع المكاتب

الثمن ١٠ قروش بخلاف أجرة البريد